

المارية الجدلية : لا غلو ولا تحريفية .. بقلم محمد عينايف

كان الجواب الذي تراءى لي ، في حدود معرفتي ، غير المختصة ، بوقائع تلك الحقبة من تاريخنا ، وخاصة من إنجازاتها الحضارية المعروفة لدى الجميع ، ومن خط سيرها ، ان فرضية انتكاس جماهير الناس العرب وارتدادهم عن القيم الاسلامية الثورية الجديدة ، هي فرضية لم يتمكن الباحث الكبير ، من تقديم الالبينات الكافية لها . في حين ان معالم عملية تحضر العرب ، والمسلمين ، في ظل الخلافة الاموية ، فالعباسية ، وانجازات العرب الحضارية التي يعرفها الدكتور النوبهي ولا شك حق المعرفة ، نهض داليل ماديا وفكريا ، لا مجال لدحضه ، على ان الاسلام ، عبر التكوينات العربية والاسلامية ، طوال قرون مديدة ، حتى عهد الحمدانييين وربما الايوبيين والاشعديين ، (وهل ننسى انجازات الفاطميين ، ايضا) ؟ قد حقق اهدافه الرئيسية بالعدة البشرية التي توفرت له في تلك العصور . صحيح ان المجتمعات العربية والاسلامية ، منذ انتصار الدعوة الاسلامية ، حتى ايامنا هذه ، مجتمعات معقدة العناصر والبنى البشرية والاقتصادية والثقافية ، وما زال في خارطة تفسيرها ومنحها واستكناه حقيقتها تطورها وسيرها وانكاسها كثير من البقع البيضاء ، رغم كل ما فعله حسي اليوم ، المستشرقون الاجانب الكبار ، وبعدم الباحثون العرب ، والمسلمون ، منذ زهاء قرن ونصف القرن حتى اليوم ، ولكن لا نستطيع اية نظرية او فرضية ان تنكر اللحظات الحضارية - الذرى التي بلغتها الدولة العربية الاسلامية ، لا سيما في عهد الخلافتين الاموية والعباسية ، وفي الاندلس ، وفي مصر الفاطمية ، من مستويات في ميادين الانتاج المادي والصناعات الحرفية وقطاعات الفكر والفلسفة والعلوم والفن ، هذه المستويات التي لا يمكن باي حال من الاحوال ، المائلة بينها وبين منظور البداوة القبلية وعقليات ((انجازات)) العرب الجاهليين . ويبقى السؤال مطروحا على امتداد تاريخنا العربي الاسلامي ، كس ، بل هو يتفرع ، في الحقيقة الى العديد من الاسئلة : الى اي حد كان الارتداد العربي ، بعد انتصار الدعوة الاسلامية الى عقليات الجاهلية ، وكيف تمكن العرب والمسلمون من ابتداء حضارتهم العظيمة ، التي اعطت البشرية انجازات اساسية في جميع ميادين الحضارة والعلم والفن ، رغم وجود تلك العناصر الانتكاسية ، ومع فعلها في صميم التكوينات الاجتماعية العربية حتى اليوم ؟ وايضا ، اصبحت النهضة العربية اليوم ؟ وهل الصورة تميل الى السواد والقنامة وتدعو للتشاؤم ، على نحو ما يصورها به الدكتور النوبهي .

اوضح الدكتور محمد النوبهي في رده الاخير بمجلة ((الاداب)) (العدد العاشر - اكتوبر - تشرين الاول ١٩٧١) انه يود ان يعتبر الحوار بيننا منتها ، قائلا انه لن يستطيع ، مهما يطل النقاش ، ان يقنعني برأيه ، وانني مهما اطل النقاش لن اقنعه برأبي .

وتلطف الدكتور فطلب الاكتفاء بنقاط الالتقاء التي توصلنا اليها معا ، وهي كثيرة ، في رأيه (وفي رأبي ايضا ، وذلك امر يسعدني ، طبعاً) . ويمكن ايجاز نقاط الالتقاء هذه بان جميع القوى الديمقراطية المؤمنة بوطنها العربي ومستقبل وحدته وتحرره وتحضره ، ينبغي ان تلقي في جبهة واحدة عريضة ، للنضال ضد قوى الاستعمار والصهيونية ، والرجعية العربية . بصرف النظر عن الخلافات الجزئية في بعض وجهات النظر . وهذا فعلا شيء هام . وقد كان يمكن ان ارى من جهتي امكان انهاء الحوار ، الخصب ولا شك ، بالنسبة لي على الاقل ، فقد دلتني على نوافس في ثقافتني ومعرفتي بتاريخ شعنا العربي ، وآدابه ، وحركة نشوء الاسلام وتطوره ، ونمو المجتمع العربي الاسلامي بعد انتصار الدعوة الاسلامية . وبديهي انني ساعدت الى استكمال ثقافتني في هذا الميدان ، وسد نواقصي . ولكن حتى الان ، ورغم جميع الاضواء التي جهد الصديق الدكتور النوبهي لاقتائها على تلك الحقبة من تاريخ شعنا العربي ، فان السؤال الرئيسي الذي طرحه في مقاله الاول المنشور ، منذ اعداد في مجلة ((الاداب)) تحت عنوان ((الشعر والحضارة)) حول عودة العصبية - ((الجاهلية ؟)) - الى مجتمعات صدر الاسلام العربية ، وارتداء الغالبية العظمى من عرب تلك الايام ، ولا سيما مجموعاتهم الشعبية الواسعة ، الى عقليات الجاهلية ((وما انا الا من غزية ..)) ((انصر اخاك ظالما او مظلوما .. الخ)) ، اي عودة السواد الاعظم من الناس العرب ، ولا سيما في ظل الخلافة الاموية ، الى التمسك بقيم البداوة ، هذه القيم الضيقة ، القائمة على الولاء لوحدة صفيصرة جدا من وحدات التكوين الاجتماعي العربي الاسلامي ، الذي كان آخذا في التحلي والتطور ، وهي القبيلة المعادية للتجمع والتحضر والتقدم في ميادين العمران المادي والبناء الثقافي الروحي ، متخيلة ، في تصور الدكتور الناقد المحترم ، عن الجوهر الشوري الانساني الايجابي الذي جاءت به الدعوة الاسلامية . هذا الاستنتاج طرح سؤالاً هاماً لم يلاق حتى الان اجابة وافية مقنعة ، يقدمها باحث مختص في هذا الميدان كالـدكتور محمد النوبهي .

(هي الطريقة العلمية الأساسية - والوحيدة - الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل) ؟ » .

الدكتور النوبهي يرى في هذا القول غلوا مذهبيا ، وتعصبا لا يستطيع قبوله ، ولكن ارجو ان لا يعتبر الدكتور اصراري على هذا الموقف ، ومحاولتي ايضاحه في ما يلي ، نوعا من الافراط في الفلو المذهبي والتعصب . وعلى كل حال ، فاني اجد هذا الحكم الذي اصدره علي الدكتور النوبهي ، مجعما بحق مفاهيمي ، والمنهج الذي انتسب اليه ، او طريقة فهمي لهذا المنهج ، اذا شاء الدكتور لذلك جئت استأنف الحكم المذكور ، بتقديمتي الايضاحات التالية :

ان المادة الجدلية ليست مجرد طريقة علمية او فكرية او فلسفية تأملية ، بل هي طريقة لاضاءة نضال الطبقة العاملة العالمة وحلفائها من سائر الشغيلة وضحايا الاستغلال والاضطهاد ، في كل وطن من اوطانها ، وكشف الواقع امامها ، لتؤسس على حقائق هذا الواقع ، الذي يكون مرتبطا بوضعها المعيشي والطبقي والثقافي والاجتماعي عامة ، لكي تؤسس نضالها عليه ، وتحشد قواها ، قوى الطبقة العاملة وحلفائها الفلاحين والطبقات البورجوازية الصغيرة - في بلدان العالم الثالث ، ومنها وطننا العربي طبعاً ، وربما اولاً - والثقافتين الثوريين ، في جبهة تتزايد قواها ، بفعل حركة التاريخ ، ونظور الاقتصاد ، وتازم التناقضات ، ووقائع نضال الشعوب ضد هجوم الامبريالية في المرحلة التي تعيننا من عمر الماركسية - اللينينية ، ولا بد ان تكون هي ، بالاحص مرحلة تحررنا نحن العرب من الاحتلال الاستعماري ، والافتصاب التوسعي الاستيطاني الصهيوني ، وضغوط الامبريالية وعدوانها ، ونضالنا لتوحيد شعبنا العربي الكبير ، وطرد المستعمر الدخيل منه ، والخلص من لعنة التجزئة .

اذن ، فالمسألة لا تتعلق بابحاث نظرية مجردة ، بل بالدراسة العلمية لتطور الواقع التاريخي الموضوعي ، وكشف قوانين سير هذا الواقع ، وتأسيس نضال بشري يستند الى فاعلة صلبة وركائز وطيدة . في هذا المجال لا يستطيع امثالي سوى القول « ان الطريقة المادية الجدلية هي الطريقة العلمية الأساسية - والوحيدة - الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر ، وتأسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل » .

فهل يعرف الدكتور طريقة اساسية اخرى ، غير المادة الجدلية يستطيع العمال والفلاحون وقوات البورجوازية الصغيرة ، والثقافتون الثوريون ، وبعض قطاعات الطبقة الوسطى في بعض البلدان العربية التي ما تزال مبتلاة بمار الحكم الاقطاعي الظلامي المطلق ، يستطيعون ان يؤسسوا عليها نضالهم لاجل صد هجوم الامبريالية والاستعمار الجديد ، وهم فلاح الاستثمار والاضطهاد والاستغلال ، واقامة مجتمعات عصرية حديثة ، يعيش فيها الناس حياة متحضرة ، لهم فيها الكرامة ، والنور ، وآفاق التقدم ؟

لكن الماركسية اللينينية ، لانها فلسفة الطبقة العاملة وجميع ضحايا الاستغلال ، في كل بلد من بلدان العالم ، وفي كل امة من امة المتحررة منها والنامية او المستعمرة - بفتح الميم - هؤلاء الذين لا يخشون الحقيقة ، لان الحقيقة ثورية كما يقول لينين ، ولان الكشف عن حقائق الواقع ستكون في خدمة - ومن اجل مصلحة - هذه الجماهير . لذلك فان مؤسسي الماركسية ، وفدوتهم الاساسية في كيفية صياغة مبادئ ونظرية المادة الجدلية ، ونظرية المعرفة القائمة في اساسها ، ماركس ، وانجلس ، ولينين ، قد اسسوا ، كما يقول الدكتور نفسه ، في مقال سابق ، منهجا مفتوحا ، ولم يشيدوا مذهباً ، من الاسمنت المسلح ، او الفولاذ الكتيمة ، مقلدا ناجزا ، غريباً عن التطور والاعتناء والاكساب من المناهج الاخرى والمدارس الثانية كل ما تثبت صحته في ميادين العلم على اختلافها ، من العلوم الانسانية ، والطبيعية ، والعلوم المصنوبة ، وغيرها من ميادين البحث .

ام ان جوانب الضوء والحركة والتقدم نحو مواقع حضارية ثابتة ، هي الغالبة في حاضرنا العربي اليوم ؟ صحيح ان الدكتور النوبهي يقرب بضرورة انضال وامكانياته ، الصورة السوداء القائمة التي يعطيها عن مجتمعنا العربي انحاصر الجزأ ، والخلل المستعمر اليوم في بعض اجزائه ، من قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية ، ولكن هل ان شخصيه الذي اعطاه في مقاله الاولى « الشعر والحضارة » صحيح ؟ في رأبي ان هذه الموضوعات الهامة والخطيرة والاساسية ، كما سبق لي القول ، والتي تلخص بتحديد النسبة عبر التاريخ العربي ، بين قوى الرجعية والتحضر ، وواقعها العياني اليوم ، ما زالت بحاجة الى دراسة من الباحثين المختصين امثال الدكتور النوبهي ، لا سيما بعد ان طماننا الى انه لا ينسى المادة التاريخية في دراساته ، وان كان لا يسميها * .

اذن ، فالموضوع الاساسي ، الذي كان منطلقا للحوار بيني وبين باحثنا الجليل ، لم نقل عليه بعد ، الاضواء الكافية ، وقد ساعد على طمس بعض جوانب الموضوع اضطررتنا ، معاً ، لخوض النقاش حول مسائل منهجية تتعلق بالمادية الجدلية وطريقة فهمها وطبيقتها وحدودها ، لكنني اعتقد ان تدقيق النقاش في هذه الموضوعات ، و « حفر » المواقع والصيغ ، والتحديد والرؤيات ، في هذا الميدان المنهجي ، ليست ، كلها ، وقتاً ضائعاً .

بعد هذه الايضاحات ، التي اود ان تكون اهابة مني للدكتور النوبهي ، ولسواء من المختصين في دراسة تاريخنا العربي الاسلامي ، بمواصلة جهودهم في هذا الميدان ، فالدراسة العلمية ، المادية ، الوطيدة المرتكزات ، وانطلاقاً من نظرة عقلانية يرفدها جميع انجازات العلوم الانسانية الحديثة ، هي خير اضاءة تقدم عن حاضر شعبنا العربي الكبير .

كان يمكنني ان اُختم الحديث عند هذه النقطة ، لولا ان الدكتور قد اودع رده الاخير القيم ، والمفعمم بواضعا وتعلقاً بالحقيقة ، حكماً على المفاهيم النظرية لكاتب هذه السطور ، اراده ان يكون حكماً جازماً فاطماً ، ينهي به الحوار كله ، مما لا يسعني الموافقة عليه .. وارجو ان يتسع صبر الناقد الكبير وصدر هيئة تحرير « الاداب » ، وصبر القراء ايضاً ، الى عرض هذا الحكم الذي اصدره الدكتور النوبهي على مفاهيمي الايديولوجية والمنهجية ، ومنافشته ، واعطاء رأبي في القضايا المسالية *problématiques* التي طرحها ، ثم ينتهي الحوار ، من جهتي ، ويبقى للدكتور النوبهي ان يقول كلمته في كلا الموضوعين الاساسيين المعروضين في مقالتي هذا ، او ينصرف الى موضوعات اخرى . فالامر عائد اليه ، ومترك لتقديره .

يقول الدكتور النوبهي في رده الاخير : « انا ، اذن ، لم افسل بافتصار المذهب المادي الجدلي على « موضوعات معينة ، بل زعمت تحده في « جوانب » معينة من كل مشكلة » .

ويقول « اما الفريق الثاني الذي عارضته - المقصود من سماهم الدكتور نوبهي « غلاة الماركسيين المتعصبين » (X) - فهو الذي يعتقد ان المذهب المادي الجدلي وحده يكفي لشرح كل الجوانب في اي موضوع يدرس وهؤلاء في نظري هم ايضاً غلاة ، ومنهم الاستاذ عيتاني كما هو واضح ، برغم كل ما لاحظناه من نزاهة وامانته ، وبحكم انتمائه المذهبي الذي يحتم عليه هذا الموقف . الم يقل في اول مقاله ان المادية الجدلية

(X) يستطيع الدكتور النوبهي ان يغير كثيراً في هذا الميدان من ابحاث محددة واثمينة اجراها « مركز الدراسات الماركسية » في باريس ونشرها في كتاب تحت عنوان « نمط الانتاج الاسيوي - المجتمعات ما قبل الرأسمالية » .

(X) ملاحظة مني .

والنشاط العملي لاجل تغيير حياة الانسان ، وبالتالي لكشف الفوائس الرئيسية في جميع ميادين الطبيعة والمجتمع والفكر ، فذلك يعني اني اغلق امام الماركسية ابواب التقدم ، والافادة من « المناهج الفكرية الاخرى » وسائر النزعات والاجتهادات والابحاث الفردية والاجتماعية في كل ميدان على حدة . لذلك فهو يصنفي بين « الفلاة » و « التصميم » ويكاد لا يفرق بيني وبين غلاة ومتعصبى « المذاهب الدينية المتعصبة التي طالما شقيت بها البشرية » . سامحك الله يا دكتور !

ان كل تاريخ المادية الجدلية في مسيرتها العلمية والتضاليس الطويلة ، منذ صدور ابحاث ماركس الاولى في منتصف اربعينات القرن الماضي ، حتى اليوم ، حيث اصبحت العقول الجماعية الكبرى ، عقول فصائل قيادات الشعوب الاشتراكية والحركات التقدمية في سائر ارجاء العالم هي التي تسهم ؟ احيانا بواسطة فلاسفة افراد كبار ، ينجحون في تحقيق الاكتشافات والتفسيرات ، وصياغة المناهج العلمية الكبيرة ، و احيانا على يد التنظيمات البروليتارية التي يتعاون اعضاؤها لدراسة وفهم مختلف ظواهر الحياة المحيطة بهم ، وصياغة مفاهيم علمية لهذه الظواهر ، اقول ان كل تاريخ المادية الجدلية الخلافة ، منذ منتصف اربعينات القرن الماضي حتى اليوم ، يدل على انها اذا كانت قد اصبحت هي الطريقة العلمية الوحيدة لفهم فوائس الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال الانسان على ركانها ، فذلك يعود الى حد كبير الى انها اتخذت بمثابة مبدأ اساسي من مبادئها ، وشرط جوهري من شروط تطورها ، انها يجب ان تكون نظرية علمية انتقادية متطورة ، بعيدة عن العزلة الاكتفائية والغرور العاجز ، والدوغمائية المدمرة ، وذلك ما فعله ماركس بالنسبة لجميع ما سبقه وما عاصره من فلسفة وفلاسة ، ومن بحث وباحثين ، وعلماء وعلماء . لقد قدم ماركس في كتابه « رأس المال » وسائر اعماله نموذجاً مبدعاً لعملية البحث عن « ذرات المعرفة » ابتداء من فلاسفة الاغريق وانتهاء برفاقه واصدقائه الهيفليين الجدد (اليسار الهيفلي الذي جمد افطابه عند مفاهيم فوضوية ، وطوباوية ، لفلسفة هيفل ولحركة التاريخ ، وآفاق تحرير المانيا نلك الايام من التجزئة ، والحكم الملكي الاقطاعي ، والاستبداد البيروقراطي ، والتخلف الاقتصادي) .

وما كان في وسع ماركس ان ينشئ المادية الجدلية ، لولا استناده الى مبدأ أخذ الاشياء العلمية الصحيحة ، والمبادئ الفلسفية الحية ، والانجازات الفكرية ذات القيمة الحقيقية لدى الفلاسفة والمفكرين والعلماء الآخرين ثم صياغة هذه كلها وفقاً لمبادئ الجدلية . كان يأخذ الانجازات العلمية التي يثبت صحتها معيار الممارسة العملية ، مثلاً ، او معيار المنطق المادي الجدلي . كما كان يبتدئ الافكار والمبادئ والاحكام التي تتنافى والمنهج الانتقادي العلمي لدى الماركسية ، مهما كان لمعان تلك الافكار والمبادئ والاحكام في ايامها ، ومهما بلغ من شيوعها وشهرة اصحابها . لقد استخلص ماركس جوهر طريقته الجدلية من تعاليم هيفل العظيم ، ولكن بعد ان قام بعملية انتقاد كاملة لهذا الفيلسوف الذي كان يعتبر ذروة الفكر البشري في ايامه ، والذي ما زال في الحقيقة احد اقرب الفكر البشري الكبار . ان الماركسية لم تنبع من قلب الطبقة العاملة ، بل جاءت من الخارج ، لانه كان يريد تأسيس علم حي منظور ، كشاف للطريق ، قائد الى الثورة ، فقد استخلص ماركس المادية الجدلية من ارقى ما وصل اليه عصره من فلسفة وعلم : الفلسفة الالمانية ، والمادية الفرنسية ، والاقتصاد السياسي الانكليزي . ولولا تعمق كارل ماركس في دراسة اعمال الماركسية الاقتصادية الانكليزي البورجوازي ريكاردو ، في موضوع « القيمة » (اي قيمة السلعة الاقتصادية المصنوعة ، وتحديد عناصرها المكونة ، والقانون الذي يتحكم في تطورها وبنائها ، وبالتالي دراسة جميع القيم الاقتصادية وغيرها في المجتمع) مع نقد ماركس لاستنتاجات ريكاردو ، لما كان بإمكان ماركس ان يكتشف قانون « القيمة الزائدة » او « فائض

ان الدكتور النوبهي ان يستطيع ان يسمي طريقة اخرى غير الطريقة المادية الجدلية يمكن احلالها محلها في قيادة نضال الجماهير الشعبية لبناء مجتمع عربي متحرر موحد متحضر خلاق . وذلك لسبب بسيط ، وهو ان هذه الطريقة اثبتت صلاحيتها وعبرت عن امكاناتها في مجتمعات اخرى عديدة ، غير المجتمع العربي ، وانشأت خلال ما لا يزيد عن خمسين عاماً ، بعد نضال استمر عشرين او ثلاثين عاماً (في بلاد ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى ، مثلاً) مجتمعات كبيرة التطور ظاهرة الحضارة ، منتشرة هذه المجتمعات من حالات تخلف وبؤس وتدهور واستلاب ، كانت اشد بكثير مما يعانيه بعض اجزاء امتنا العربية اليوم .

اما قول الدكتور النوبهي بانه لم يقل باقتصار المادية الجدلية على موضوعات معينة بل على « جوانب من هذه الموضوعات » ، فهو قول يجافيه المنطق ، ولا سيما المنطق المادي الجدلي ، نظرياً وعملياً . فمن الناحية النظرية ، فان تقسيم الموضوعات الى جوانب ، مناقض لاسس الفلسفة بعامة ، حتى لمبادئ مختلف مدارس الفلسفة الغيبية والمثالية بجميع فئاتها ونزعاتها . البحث العلمي ، والتنظير العقلائي ، والفكر الفلسفي ، علة وجودها ان تستطيع التعميم ، والوصول الى اكتشاف القانون العام الذي يحكم حركة هذه الظاهرة او تلك من ظواهر العالم ، وبالأحرى ان يكون هذا هو موقف المادية الجدلية ، التي تطمح الى ان تسير في طبيعة حركة الفكر والعلم والنضال البشري . وبديهي انه ليس في وسع البحث العلمي ، الجدير بهذا الاسم ، ان يقتصر على جانب ، او جوانب معينة من ظاهرة معينة ، هي مجال اختصاص ، او قسم معين من موضوع . وتبين استحالة فكرة الدكتور النوبهي ، بصورة اوضح واكثر سطوعاً ، حين نقلها الى الميدان العملي ، التطبيقي ، ميدان الممارسة والفعل . فمن الذي يحدد للباحث الجانب الذي يستطيع ان يبحثه ، والجانب الاخر الذي لا يستطيع ، واستناداً الى اية معايير ، يا دكتور ؟ لا سيما ونحن نتحدث في الثلث الاخير من القرن العشرين ، عصر تكامل المعارف البشرية ، وسهولة الاطلاع على الانجازات الرئيسية في كل علم من العلوم ، وكل فرع من فروعها ، بل اضطرار العالم الطليعي الى هذا الاطلاع الواسع المتكامل .

لقد وضعت المادية الجدلية نصب عينها ، منذ ان اسسها ماركس وانجلس ، ابتداء من منتصف القرن الماضي ، مطمحا كبيراً وخطيراً ، وهي ان تكون النظرية العلمية الشاملة ، التي تستطيع ان تتممها فعلاً جماهير الطبقات العاملة ، الاكثر تقدماً ، في جوهر الامر وحقيقته ، وهي الطبقات الخاصة للاستغلال والاستثمار ، لكي تؤسس على تلك النظرية نضالها في هذا العصر ، عصر احتدام التناقضات بين قوتي المجتمع الرئيسييتين الطبقة العاملة ، والطبقة الرأسمالية . و ارادت الماركسية ، واستطاعت ، ان تكتشف القوانين الاساسية العامة التي تحكم حركة الطبيعة والمجتمع والفكر ، وتقيم منها منهجاً متكامللاً شمولياً ، منفتحاً ، بمثابة شرط اساسي لفعاليته وحيويته ، امام جميع الانجازات العلمية يحققه علماء اخرون ، غير ماركسيين ، او تحققة المدارس والنزعات الاخرى غير الماركسية . وذلك ، لكي تكون هذه النظرية ، المادية الجدلية ، السلاح الاساسي في ايدي العمال والفلاحين وسائر ضحايا الاستغلال ، والمثقفين الثوريين ، للهجوم على قلاع الرأسمال والاستثمار ، والطغيان الامبريالي ، والرجمي الطلامي ، وهدم جميع بني التخلف والاستلاب ، وبناء مجتمعات انسانية ، عصرية ، متحررة ومنتحضرة .

يبقى ان نفهم جيداً موقف المادية الجدلية ، المتطورة باستمرار ، والمتفتحة على الدوام ، من « المناهج الفكرية الاخرى » كما يقول الدكتور النوبهي .

الدكتور النوبهي يعتقد اني حين اقول ان المادية الجدلية هي الطريقة الوحيدة المتلاحمة المتجانسة ، ذات الوحدة الايدولوجية

القيمة « La plus - value وهو الحجر الاساسي في علم الاقتصاد الماركسي ، ونقطة التحول الخطيرة في ادراك ممثلي وقادة الطبقة العاملة العالمية لحقيقة ما تخضع له من استقلال واستثمار .

وطوال تطورها ، ظلت المادية الجدلية ، وما تزال تحتفظ بهذه « التقاليد » ، تقاليد الانفتاح على المدارس الاخرى ، والمناهج الاخرى ، واعمال العلماء الاخرين ، والاستفادة من كل ذرة حقيقة يوجدتها البحث العلمي ، في اي ميدان من الميادين .

فطوال حياة لينين ونضاله وقبل انتصار العمال والفلاحين الروس بقيادته ، في ثورة اكتوبر ، وبعد الثورة ، ظل هذا القائد العالم ، مستمر الاطلاع على ابحاث العلماء الاخرين وانجازاتهم واجتهاداتهم . كان يقرأ احصاءات خصومه « الشعبين » ، ومعلوماتهم الاقتصادية ، وتقاريرهم عن زيارتهم لقرى روسيا ، ومدنها ، ويسجل كل ما يراه مفيدا له في ابحاثه الثورية ، لكن ذلك لم يمنعه من نقد المفاهيم النظرية لفادة هذه الحركة ، ودحض نظريتهم البورجوازية الصغيرة ، الناظرة الى وراء ، الى روسيا الفلاحية ، ذات الانتاج الحرفي الصغير ، والمقلية الرجعية .

ومن اجل دحض نظرية معادية للماركسية ، اخذت ، بعد اخفاق ثورة 1905 في روسيا ، تروج رواجاً كبيراً حتى بين مناصلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الحزب البلشفي ، فالشيوعي فيما بعد) وهي فلسفة « النقد التجريبي » (Mach - empirio - criticisme بزعامه ماخ Mach

كان على لينين ان يتعمق في دراسة واقع حركة العلم في ايامه ، ولا سيما اوضاع علم الفيزياء ، لان ماخ ورفاقه ، كانوا يعتمدون على ظهور نظرية امكانية تحطيم الذرة ، التي كان قد اثبتها كبار علماء الفيزياء في ذلك الزمن ، لينادوا بان المادة لا وجود لها في الواقع ، وان ما نراه وبالشكل الذي نراه ، من اشياء ان هو الا مجموعة ارتسامات وقناعات فكرية وسلاسل من الاوصاف والتصورات نشأت في عقولنا نتيجة خضوعنا الطويل لمظاهر الاشياء . وكان التجريبيون التقدميون يقولون : ها هو العلم الفيزيائي الطبيعي التجريبي يثبت ان الذرة قابلة للتخميم بحيث تنقسم الى قوى وطاقات ، ليس بينها ما هو صلب ، ولا جامد . انها شحنات وتموجات ودورات قوى ، وليست « مادة صلبة ملموسة » مطلقاً . وبدبهي ان ماخ استخدم اكتشافات كبار علماء الفيزياء في ايامه لكي يؤسس عليها فلسفة رجعية ، تبدأ بتحريف الماركسية لتنتهي الى دحضها وهدمها من الاساس . كان ماخ ورفاقه واتباعه يقولون ما يلي : انتم الماركسيين الارثوذكس « الفلاة » تقولون ان نقطة انطلاق الماركسية هي وجود الكائن قبل الوعي ، وجود المادة باستقلال عن الذهن ، وتقولون بقوانين جدلية تسري احكامها في الطبيعة ، ثم تلتسونها في حركة المجتمع وترون ان هذا المجتمع يتحرك بفعل الصراع بين التضادات ، على اساس الحياة الاقتصادية ، التي هي في آخر تحليل سلمة ومادة ، ثم تعتبرون ان هذه القوانين تنمكس في دماغ الانسان ، المؤلف من ذرات اثبت علم الفيزياء في النهاية انها عبارة عن طاقات وقوى وتموجات ، وان لا وجود محسوس لها . لذلك ينبغي ان نراجع الماركسية من الاساس .

حين اراد لينين ان يتصدى لماخ واقطاب هذه الفلسفة المثالية الرجعية ، المعادية للعلم والثورة ، فانه عكف على الاطلاع على أهم كتب الفيزياء ، والعلم وتاريخه ، وعلى المؤلفات الاساسية في فلسفة العلوم في عصره ، سافر الى سويسرا ، فالى فرنسا ، ثم الى بريطانيا ، ليدرس في مكتباتها ، جميع المراجع الاساسية في هذا الموضوع الخطير . بذلك تمكن من ان يدحض نظرية ماخ « النقدية التجريبية » وان يكشف عن مكانم الضعف والتسزيف « العلمي » والاطع الفلسفية والانحرافات عن نهج ماركس العلمية .

فالمادية الجدلية ، لانها نظرية علمية ، تريد ان تكون دائماً

خلافة ، دائمة التطور ، تجد ان لا بد لها من ان تستوعب باستمرار كل ما يحققه سير العلم من انجازات ، في جميع الميادين . لكن المادية الجدلية لا تأخذ كل شيء من كل منهج او من كل فلسفة ، مهما كان بريق - او سطوع - هذه الفلسفة في زمنها كبيراً اخاذاً . فماركس رفض المالتوسية منذ البدء ، يوم ان كانت موضع اجلال كبار علماء الاقتصاد في زمنه ، في بريطانيا والفاة الأوروبية ، ودحضها في هومش « رأس المال » ، وأخذ الداروينية يوم ان كان كتاب « اصل الانواع » يعتبر تجديفاً على المعرفة الصحيحة والحس السليم .

وليس المجال مجال تعداد كل ما اغنتت به المادية الجدلية ، طوال حياتها ، منذ زهاء مئة وثلاثين عاماً ، من انجازات وابحاث الاخرين ، بمن فيهم اصحاب الفلسفات المخالفة للمادية الجدلية ، والمضادة لها في بعض الاحيان ، ومن العلماء الذين لم يكونوا ، في مفاهيمهم النظرية ، مادييين جدليين . هذا اذا جاءت تلك الابحاث انجازات تقدم المعرفة . ولكن تكفي الاشارة ، بالاضافة الى كون أغلب ابحاث ماركس وكتبه نظيراً علمياً لآلاف الوقائع والمعطيات والحقائق التي كان يأخذها من اعمال الباحثين الاخرين ، بالاضافة الى دراسته للوقائع الثوري الحي ، حركة النظام الرأسمالي ، وحياة الطبقة العاملة ، ووقائع صراع الطبقات - اقول تكفي الاشارة في هذا الميدان الى كتاب فريدريك انجلس « اصل الاسرة ، والملكية الخاصة ، والدولة » . والمعروف ان الوقائع الرئيسية التي اعتمدها انجلس لصياغة نظريته عن المجتمعات القديمة ، ونشوء الملكية والاسرة والدولة ، انما اخذها من كتاب مورغان عن رحلاته عبر قبائل ومجتمعات بدائية جدا في جزر اوقيانيا والمحيط الهادي . والطريف ان انجلس ، ذلك المفكر العمقري ، والعالم الكبير ، قد اخذ تلك الوقائع ، حتى باخطائها ...

طبعاً هناك نواقص يمكن الاشارة اليها ، واخطاء ، فادحة احياناً ، وحالات تقصير ، كانت او ما زالت تسجل على الماركسية ، فسي تطورها وتطبيقها ، لدى هذا الحزب او ذاك ، ومن قبل هذا المفكر او ذاك . لقد اشار الدكتور النوبي الى ان المادية الجدلية رفضت علم النفس التحليلي « الذي نحتاجه لاستكمال فهم النفس الانسانية وما يدور بها من صراعات وما يكمن فيها من « عقد » . وليس مما أقوله في تفسير ذلك تبريراً ، طالما انه قد اتضح لجميع المادييين الجدليين صحة شطر كبير من استنتاجات فرويد بعد دراساته وتجاربه السريرية ، لكن فرويد حين اطل منذ اواخر القرن الماضي بابحاثه في ميدان علم التحليل النفسي ، انما قدمها في كتب تجريبية ونظرية ، يشوبها الكثير من التفسيرات الاجتماعية والاستنتاجات الفلسفية التي بالفت في اعلان شأن الدافع الجنسي بحيث جعلته ركن الحضارة ، وركن الحرب والفناء وخراب الانسان ، في الوقت نفسه . ولم يكن في وسع المادييين الجدليين حينئذ ان يصفوا الى هذه الاستنتاجات . لقد كانت المادية الجدلية تقسوم باعداد الشوب لثورات جماهيرية جبارة ، ولم يجد قادة ومحضرو تلك الثورات ان هناك فائدة كبيرة لهم في الاخذ بمفاهيم « الليبيدو » و « الانا العليا » و « عقدة اوديب » و « عقدة بيسيشية » ، وسائر العقد ، الحقيقية والوهمية ، التي دل عليها العالم النمساوي الشهير . كان يعمل في روسيا حينئذ باحث اخر ، اسمه بافلوف ، الذي اكتشف قوانين فيزيولوجية علمية جديدة ، هي قوانين الارتكاسات المشروطة وغير المشروطة ،

Reflexes conditionnés et inconditionnés

واستطاع ان يمددا دراسة النشاط العصبي ، والنشاط العصبي العالي (عمل الدماغ) وذلك وفق منهج تجريبي ونظري علمي بحت ، لذلك لم يكن في وسع المادييين الجدليين المهتمين بعلم النفس ، بما

فيه الطب العقلي ، ان يؤثروا ابحاث فرويد ، الشديدة التفرعات والتشويش والمبالغة ، والفارقة في بحر لا نهاية له من الصور الادبية والمقارنات التراثية ، فضلا عن المبالغة والغموض ، وذلك قبيل استيعاب الطريقة البافلوفية في بحث حركة الاجهزة العضوية الحية ، وتوجيهها : الجهاز العضوي للانسان . لذلك انصرف علماء النفس الماركسيون نحو بافلوف ، وأهملوا فرويد ، ومدرسته ، وذلك تقصير ، بالطبع ، اذ كان ينبغي فحص المعطيات السريرية والتجريبية العلمية التي قدمها فرويد ، واستيعابها ، وصياغة نظرية متكاملة في علم النفس ، الذي قدم حتى الآن العديد من العلماء الكبار ، والعديد من المعطيات الراسخة . لكنه ما زال ، في رأبي ، اقرب الى التجريبية منه الى العلم .

ليست المادية الجدلية ، كما سبق القول ، فلسفة نظرية تأملية ، ولو كانت كذلك ، لسهل عليها ان تزين حواشيتها ، بل وصلها ، بمفاهيم برغسون عن « الديمومة » و « التطور الخلاق » او المفاهيم الذرائعية او الظاهرية او الوجودية ، وغيرها . لكن المادية الجدلية هي نظرية عمل ونضال وتغيير ، معيارها الاول الممارسة العملية وما يتجلى في تجارب الجماهير العاملة وحركة التاريخ من صدق هذا المفهوم او ذاك ، وصحة هذه المقولة او تلك ، وهذا لا يعني ان الجدلية هي ذرائعية ، فان نظرية الشعب الشغل تحمل في ذاتها ، الى جانب مبادئها الجدلية وموقفها الثوري من واقع الاستغلال والاستثمار ، قيما خلقية وانسانية ، تتعد بها عن كل ذرائعية .

« المادية الجدلية هي الطريقة العلمية الاساسية - والوحيدة - الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل » . هذا ما ورد في مقال سابق ، لي ، حاورت الدكتور النوبهي فيه بصدده آرائه في مقاله الهام « النقد والماركسية والدين » .

فهل ان مثل هذه العبارة تسمح للدكتور النوبهي بان يضعني بين « غلاة » الماديين الجدليين و « متعصبيهم » . لا يمكن الجواب على ذلك ان يكون بالاجاب . ذلك لانني حين اخترت المادية الجدلية اساسا للتفكير ، لا شك في انني اطلعت قبل ذلك على سائر « المناهج » والفلسفات التي كانت سائدة في ايام دراستي وتأملاتي وبحثي عن منهج حياتي ، هي التالية :

كان هناك الوجودية ، لكنني حرت اية وجودية اتبع ، نزعاً كيركفارد الفردية الذاتية المفلقة التي ترى ان الحياة كلها تختمر في فردية ذاتية يانسة تقف امام - او تحت - الله . ام وجودية هايدغر وياسبرز ، وكلاهما شان فلسفة كيركفارد لم يكن لها مؤدى اجتماعي ، كل من الفيلسوفين يحرك كثيرا من الافكار ، وبعضها ، لا سيما على النطاق الذاتي التأملي صحيح بل رائع ، ولكن لم يكن لدى الفيلسوفين الوجوديين الكبارين رسالة اجتماعية ، ولكن ها هو مفكر لامع ، وكاتب مبدع ، وقلب جريء ، وضمير حي ، ومجادل فذ ، هو جان بول سارتر ، الذي يقرن ابحاثه الفلسفية العميقة ، بمواقف نضالية وسياسية واجتماعية ، يمكن تسميتها « ثورية » . لكن المفارقة الاولى التي ابعثتني عن وجودية سارتر ، هي نوعية اتباعه في فرنسا ، أي حقيقة التطبيق والفهم الاجتماعيين لنظريته ، وهجومه على فلسفة اخرى كنت اقوم بدراستها حينئذ ، وهي المادية الجدلية ، فكنت ارى ان ما يقدمه من حجج ضد الماركسية ، كان واهيا ، لا سيما وانني كنت اطلع في الوقت نفسه على ردود خصومه الماركسيين ،

الذين كانوا اقوى حجة ، واعمق ايمانا بالشعب وقواه الشفيلة ، وكانوا يلون ، لدى تطلعات عربي يشعر بذل الاستعمار والاستغلال ، ويتضامن مع آلام الناس الشفيلة . ان الحرية التي ينادي بها سارتر للشخص الانساني ، ونضاله لكي يبني كل شخص وجوده كما يشاء ، انما هي مشروطة باوضاع طبقية واجتماعية وواقعية ، انتهى اليها سارتر فيما بعد . بل جاء يوم يقبول فيه سارتر ان الماركسية هي فلسفة هذا العصر ، والفلسفة التي لا يمكن تجاوزها الا من خلالها ، اي عند تطويرها .

لكن ذلك الموقف جاء ، بالنسبة لي ، بعد فوات الاوان . ففي منتصف الخمسينات ، حين انضويت تحت لواء المادية الجدلية ، كانت المعركة في وطننا العربي معركة حياة او موت ضد الهجوم الامبريالي ، واحلافه ، وسمومه الفكرية ، وتضليله الثقافي . كذلك ، فقد نظرت حولي لارى المناضلين تحت شعار المادية الجدلية ، في بلدي ، تنطبق افعالهم على اقوالهم ، ويبدلون جهودا جبارة لاستكمال تحرير بلدنا ، وجعله ينضوي في حركة الثورة العربية ، بكل قواه .

كانت هناك التومائية الجديدة ، وهي فلسفة غيبية تعسك بملكوت السماوات ، بلغة مشبعة بالمصطلحات العلمية وهم التجديد .

كان هناك الفلسفة الظاهرية . وبمقدار ما خلب لبسي في البدء نقدها للفلسفة الميتافيزيقية الكلاسيكية ، خيب املي اقتصار هذه الفلسفة على وصف آلية التفكير ، وتعداد أنماطه ، ومسألة « الغصدية » وكيفية لقاء الفكر بالواقع . اما ذهاب الظاهرية الى « الحسي » concret فقد ذهبت اليه لوصفه لا لتغييره . طبعاً ، ان الطريقة الماركسية يمكنها ان تستفيد من صدق الوجوديين واخلاصهم ، رغم فريديتهم المطلقة ، كما يجب ان تفيد من قدرتهم العجيبة على التعبير ، وتعلقهم العارم بالحرية . ومن الظاهرية ، يمكن ان تفيد المادية الجدلية من دقة اللغة الفلسفية ، وهنوء التحليل وعمقه .

كان هناك عملاق من عمالق الفلسفة الفكر الغربي ، هو تيلهار دي شاردان ، لكن اهم ما توصل اليه هذا المناضل الكبير في سبيل العلم ، والذي كان عالما في اصول الانسان ، وباحثا مكتشفا ، ان اهم ما توصل اليه تيلهار كان الرابطة الحية بين الطبيعة والانسان ، وبين الانسان والفكر ، ولديه طبقة رابعة ، هي الانسان الامثل ، والذي تجسد ، كما يرى تيلهار ، في « المسيح » ، والذي يجب ان تسعى البشرية الى اكمال تطورها للوصول الى مستواه « المافوق البشري » . طبعاً ، ان العناصر الجوهرية في فلسفة تيلهار ، الصلة بين الطبيعة والانسان والفكر ، كانت قد سبقته اليها المادية الجدلية منذ زمن طويل .

واظن انه لا حاجة بي لتفنيد الفلسفة الذرائعية . فقد فصلت الفلسفة على طول الراسمالية الاميركية وعرضها ، فضلا عن هشاشة مرتكزاتها المنطقية . ان « الفلسفة » التي تقول ان كل ما ينجح هو حقيقي سواء اعتمد طريق السحر ، او الدين ، او الفاشية ، لا يمكن ان يتبناها ثوري عربي وحدي . اما الوضعية الجديدة ، فان قولها بان القوانين العلمية هي مجرد صياغات ذهنية يوجد لها العقل منطقها الخاص ، وانحصار مؤسسها برتراند راسل في تحليلاته حول مناشيء الرياضيات ، وكونه لم يصف شيئا غير معروف في كتابه الضخم « تاريخ الفلسفة الغربية » قد ابعثني عن

الوضعية الجديدة كما ابعدي عنها بحثي عن مرسلة في الفكر ،
تولي الانسان وحاجاته الاهتمام الاول ، ولم يكن ذلك شأن الوضعية
المنطقية الجديدة ولا هدفها

العلمية ، وترايط منهجها الذي يتأسس على قوانين عامة ، نجد
تطبيقا لها في حركة الطبيعة ، وفي تطور المجتمعات وسير نضال
شعوبها ، كما نجد ان قوانين الجدلية ماثلة في النشاط العقلي
والفكري ، وارتباطه بالواقع ، بصفة ذلك النشاط انعكاسا جدليا
لهذا الواقع ، يتأثر به ويؤثر فيه .

اما المادية الجدلية فشيء آخر تماما . وليس المجال مجال
عرض مآثر هذا المنهج وانجازاته الاجتماعية والفكرية والعلمية .
يكفي انه حرر ثلث البشرية حتى الآن من آفات الجوع ، والفقر ،
والمرض ، والاستعمار ، والاستلاب ، وانه يمد يد المؤازرة لافطار
العالم الثالث ، وفي طبيعتها امتنا العربية ، وانه يقف بالمرصاد
لوحش الامبريالية ، حاشدا قوى الشعوب وقدراتها ، حتى فسي
الموطن الاساسي لهذا الوحش ، في الولايات المتحدة ، لانفساد
الحضارة الانسانية ، وتحقيق تقدم البشر وتأخيرهم وتضامنهم وحررهم .
أظن انه يستخلص بوضوح تام ، من كل ما اورده نتائج عديدة اهمها
موضوع النقاش مع الدكتور النوبهي ، واعتقد اني اثبت بان
المادية الجدلية لم تطلق على نفسها الابواب ، وتتضمن ضد كل
تطور او تأثر بالفلسفات والمناهج الاخرى ، ولكن مع بقائها على
منطلقاتها الاساسية وهي مبادئها الجدلية . كما احسبني قد اثبت
تفوق المادية الجدلية على سائر الفلسفات ، بشمولية مبادئها

وبعد ، فالمادية الجدلية فلسفة شمولية علمية ، لذلك فالحقيقة
ضالنتها تأخذها اتي وجدتها ، وهي نظرية ثورية ، لذلك فهي انتقادية ،
لا تسمح بان يتسرب السى جسمها شيء من افكار المصالحة
البورجوازية ، او المراجعة ، او التصفية ، او المثالية . انها فلسفة
علمية مادية ، منهجية ، متكاملة ، تطور نفسها بنفسها ، في خدمة
الناس الشفيلة .

تلك هي كلمتي الاخيرة في الحوار الذي سعدت به ، مع
الدكتور النوبهي ، لانه كان حوارا مع ناهد كبير ، وباحث جاد ،
وانسان شريف ، تعلمت منه اثناء هذا الحوار العديد من الاشياء
المفيدة والطيبة . والدكتور النوبهي تحياتي واكباري .
محمد عيتاني

دار السلام دار الحزبي للنايف والترجمة والنشر

صدر حديثا عن

بيروت - لبنان - هاتف : ٢٤٥٧٧٨ - ص . ب : ٦٥٨٥

- اخلاق القرآن : للدكتور احمد الشرباصي

يبحث في الاخلاق التي يجب ان يتحلّى بها المسلمون ، وقد افرد المؤلف لكل خلق بحثا مستقلا عرضه بشكل واف رائع بحيث
امتاز الكتاب بالدقة في البحث والوضوح في الافكار وبجمال الاسلوب وقوته .

- صراع : للدكتور احمد الشرباصي

مسرحة تدور حول القتال بين الحق والباطل . الحق الذي يتمسك به المسلمون ويدافعون عنه ، والباطل الذي يتبعه الذين
تمسكوا بالحياة الدنيا وعرضها وظنوها كل شيء .

- الطريق : للاستاذ محمد الخطيب

مسرحة تدور احداثها حول النضال العنيف ، يقوم به رجال آمنوا بحقهم ورضوا بالطريق الموصلة اليه . . طريق القوة
والعنف . . طريق الفداء والتضحية وتقديم الارواح فدى للوطن .

- فلسفة الحركة الوطنية التحريرية : للاستاذ نسيب نمر

كتاب ايدولوجي وفلسفي يضع اسس الحركة الوطنية التحريرية ، ويناقش التحريفيين من القوميين السوريين والشيوعيين الكلاسيكيين
وخرج روجيه غارودي عن اهم مرتكزات الاشتراكية العلمية وبروز صادق جلال العظم في « نقد الفكر الديني » مثاليا واضحا ، ويحدد
الاطار المبدئي للارتباط بين المحتوى القومي والطبقي للتورة الفلسطينية .